من التراث العربي

شاعرات من الأندلس

د. محمد الشريف قاهر

جامعة الجزائر

لقد ازدهر المجتمع الأندلسي بعدد غير قليل من الأديبات الشاعرات، اللائي أسهمن بقسط وافر في إثراء الأدب الأندلسي، بألوان طريفة من موضوعات الشعر، فكان إثراؤهن للشعر أمرا واضحا في مجتمع كاد يكون كلّه شاعرا.

لقد عرف المشرق العربي عددا من الشواعر، على مرّ الأحقاب والقرون، يكثر عددهن في فترات متقاربة حينا، متباعدة أحيانا أخرى، أمثال الشاعرة المخضرمة الباكية الراثية الخنساء [1] وليلى

1 ـ تماضر بنت عمرو، أعظم شواعر العرب في الرثاء، قتل أخواها معاوية وصخر فرثتهما وحرضت قومها على الأخذ بالثأر، ولما جاء الإسلام أسلمت مع قومها، بني سليم وحسن إسلامها عاشت أكثر عمرها قبل الإسلام، وكان لها أربعة رجال شهدوا وقعة القادسية معها عام 16 هـ فحرضتهم على الجهاد فاستشهدوا جميعا، وقالت: الحمد للّه الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة. توفيت في أوائل خلافة عثمان عام 24 ـ 646 م.

أنظر : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحالة، 1 : 360 ـ 371. مؤسسة الرسالة بيروت. ط 3 . 1398 هـ / 1977 م.

الأخيلية [2] وعلية بنت الخليفة العبّاسي المهدي [3].

وفضل وعلم [4] وغيرهن، ولكن عدد هؤلاء قليل إذا قيس بعدد الشاعرات في الأندلس، كما أن قصائدهن محدودة العدد بالنسبة للأندلسيات، فضلا عن خضوعهن إلى حد ما لتقاليد معينة، لم يستطعن الإفلات منها، والخروج عن نطاقها، لأن المجتمع العربي المشرقي ظل على مدى قرون يحاسب المرأة على أقوالها وأفعالها أكثر مما يحاسب الرجل على ذلك.

أما في الأندلس فقد نالت المرأة حريتها في القول والعمل منذ نعومة أظفارها، لأنها نشأت في مجتمع مختلط، يشتمل على عناصر مختلفة،

---

2 ـ ليلى بنت عبد اللّه بن الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية المسمى الأخيل، تعد من النساء البارزات في الشعر، لا يتقدم عليها إلا الخنساء ـ وكانت فصيحة، ذكية، جميلة، اشتهرت بأخبارها مع توبة، وكانت بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة، توفيت في «ساوة» عام 80 هـ 700 م.

انظر ترجمتها في أعلام النساء. 4 : 321 ـ 334.

3 ـ علية أخت إبراهيم بن المهدي من أبيه، كانت حسنة الصوت، مطبوعة على الغناء، تقول الشعر كأخيها، وتضع فيه ألحانا جيدة تلقيها على جواريها. عرفت بالورع والفضيلة، ولدت عام 160 وتوفيت سنة 210 هـ ـ 922 م.

أما أبوها محمد بن عبد اللّه المنصور المعروف بالمهدي، فقد ولد عام 126 وتولى الخلافة بعد أبيه عام 158 هـ ـ 775م وهو ثالث الخلفاء العباسيين، كان شهما كريما، شديدا على أهل الزندقة والإلحاد، يقول الشعر ويجيده، وتوفي عام 169 هـ ـ 785م.

أنظر : أ ـ أعلام النساء. 3 : 334 ـ 142.

ب ـ فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر الكتبي، 2 : 197 ـ 200 . ترجمة : 326 مطبعة السعادة بمصر 1951.

4 ـ فضل وعلم : جاريتان كانتا بالمدينة المنورة، ثم انتقلتا إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وفيها نبغتا في الشعر، والغناء، ومنها اشتريتا للأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط صاحب الأندلس، وخص لهما ولغيرهما من الجواري قصرا أسماه «دار المدنيات».

أنظر أخبارهما في أ ـ أعلام النساء ، 3 : 331.

ب ـ أعلام النساء 4 : 177.

ويحوي أجناسا كثيرة، ويعتنق ديانات متعددة. وهذا المجتمع الجديد يُكوّنه العربي المسلم، والمغربي المؤمن، والإسباني المعتنق للإسلام عن اقتناع ودراية وإيمان. والإسباني المظهر للإيمان تقية وهروبا من دفع الجزية، وجريا وراء مصلحة شخصية، والإسباني الذي اختار البقاء على دينه المسيحي، فنال في ظل الحكم الإسلامي من الحرية في التفكير، والتعبير، والتدين، ما لم ينله أثناء الحكم الروماني، والوندالي، والقوطي، منذ أقدم العصور.

كما يضم المجتمع الأندلسي الجديد عددا من اليهود الذين تفنن القوطيون في اضطهادهم، ومصادرة أملاكهم، واستعباد أولادهم، وهدم بيعهم، فلما أطلت شمس الإسلام على هذه البلاد، شملتهم عنايته، وأظلتهم رحمته، فسعدوا، وشعروا بالعزة بعد الهوان، وبالراحة بعد المشقة، وبالحرية في المعتقد بعد الحرمان، وتلك هي أخلاقيات الإسلام، رحمة وشفقة، وحرية واطمئنانا، فلا عدوان إلاّ على الظالمين.

وفي هذا المجتمع السعيد نشأت المرأة الأندلسية، وشاركت الرجل في كل مجالات الحياة، فتعلمت، واعتلت المناصب العليا، وأصبحت أستاذة، ومعلمة، وناسخة، وراوية للأحاديث، وشاعرة، وناثرة، ومؤلفة. فقالت الشعر في كل موضوعاته، وأطرقت كل أبوابه، فكانت تتغزل بالرجل كما كان الرجل يتغزل بها. وتلحُّ في إغرائه، وتصف له محاسنها، وتذهب إليه زائرة تدق بابه ليلا، وتناجيه بالأشعر الرقيقة الموحية جهارا.

كما أنها كانت تمدح الملوك والقادة والولاة، وتنال على ذلك الجوائز والهبات، وتحرز على الصكوك والضياع، كما كانت تفخر، ولكن في ظل

أنوثتها، وجنسها اللطيف، بل وتقول في الهجاء، ولا تتورع في استعمال أساليب الذين أفحشوا فيه من الشعراء المشارقة المشهورين، كبشار [5] وابن سكّرة [6] وابن الحجاج [7]، بل ربما استعملت ألفاظا قذرة يتحرّج المحتشمون من الرجال من استعمالها.

ولعل من الأنصاف للبحث، والتدقيق للتاريخ، أن نشير إلى أن المرأة الأندلسية الأديبة الشاعرة كلما كانت قريبة العهد بزمان الفتح، كانت أقرب إلى عروبتها وتقاليدها، وبالتالي إلى حشمتها، والتردد في استعمال كلام الفحش، والتعبير البذيء، وكلما بُعد بها العهد، وطالت بها السنون، والأعوام، كانت أقرب إلى التحلل والتحرر، والإسفاف في القول والفعل.

ومما لا شك فيه أن هذا التحلل والتفتح قد ورثته على المجتمع

5 ـ بشار بن برد (95 ـ 167 هـ 714 ـ 784) م كنيته أبو معاذ، ولد ونشأ بالبصرة، وقدم إلى بغداد، أدرك الدولتين الأموية والعباسية، كان ضريرا. أشعر المولدين على الإطلاق، واشتهر بالهجاء المقذع الفاحش، والغزل الماجن، وكانت عادته إذا أراد أن ينشد أو يتكلم يلتفت عن يمينه وشماله، ويصفق بإحدى يديه على الأخرى. اتهم بالزندقة فمات ضربا بالسياط، ودفن بالبصرة، له ديوان شعر أنظر: مطبوع الأعلام، لخير الدين الزركلي، 2: 24 ـ 25. ط 3.

6 ـ ابن سكرة : محمد بن عبد اللّه بن محمد الهاشمي، أبو الحسن، من ولد علي بن المهدي العباسي، شاعر معروف من أهل بغداد، توفي ببغداد عام 385 هـ ـ 995 م.
أنظر : أ ـ الأعلام للزركلي، 7 : 99.
ب ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، للثعالبي، 3 : 3 ـ 30, مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ط 2 1375 هـ / 1956 م.

7 ـ أبو الحجاج : الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر أبو عبد اللّه البغدادي الشيعي، اشتهر بالخلاعة والسخف في شعره، مع عذوبة ألفاظه وسلامة شعره من التكلف. تولّى المحاسبة في بغداد أيام بني بويه، ولم يحسن التصرف فعزل، وصفه الذهبي بشاعر العصر وبقية الأدب وأمير الفحش، وبأنه كان أمة في نظم القبائح وخفة الروح، له ديوان كبير يبلغ عشرة مجلدات، توفي عام 391 هـ 1001 م.
ترجمته في : أ ـ يتيمة الدهر لأبي منصور الثعابين 3 : 31 ـ 104.
ب ـ الأعلام للزركلي 2 : 349.

الأندلسي المختلط الأجناس والأديان، فكثيرا من الشواعر آباؤهن عرب، وأمهاتهن إسبانيات مسلمات، أو مسيحيات، وفيهن من أمهاتهن يهوديات لحما ودما، عربيات لغة ولسانا.

كما كانت المرأة في الأندلس تتمتع بقسط وافر من النفوذ في المجال السياسي، فقد كانت (طروب) زوجة الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (172 ـ 180) صاحبة سلطة واسعة، وكلمة نافذة مسموعة، فكان أصحاب الحاجات يتخذونها وسيلة لقضاء مآربهم لدى زوجها الأمير الأموي، كما أن جواري عبد الرحمن الأوسط، (206 ـ 238) طروب، وفُلة، ومدثر، والشفاء، لهن سلطان ودلال على الأمير محمد، (238 ـ 273) وخاصة طروب التي كانت تسعى جاهدة لتولية ولدها عبد اللّه ولاية العهد، بدلا من أخيه لأبيه الأمير محمد فجمعت من أجل الوصول إلى غرضها أموالا طائلة، لتستميل بها قلوب القادة والولاة، وأعيان الأمة. وكان عبد الرحمن أسير هواها، يعمل جاهدا على إرضائها، وإكرامها، رغم هجرانها له، وتصديها عنه، بل لم تتردد في تدبير مؤامرة لاغتياله، لأنه لم يستجب لرغبتها في تولية ابنها ولاية العهد، فاستعانت على تنفيذ خطتها بالفتى الصقلي «نصر» ولكن المؤامرة انكشفت وذلك في عام 236 هـ.

فقد أمر عبد الرحمن الأوسط فتاه بشرب الدواء الذي أحضره له، وكان فيه السم، فما على الفتى الصقلي الضاحية إلا أن يشرب السم، الذي أعده لسيده، في صورة دواء، فمات الفتى في الحال. ورغم هذه المؤامرة الخطيرة فقد ظل عبد الرحمن يهيم بطروب، ولا يكاد يتحمل

غيابها عنه، وابتعادها عليه، إذ كان كثير الميل للنساء، وشهواته. يروي بعض المؤرخين أن الأمير عبد الرحمن أغضب يوما جاريته طروب، فهجرته، ولزمت مقصورتها، فأرسل إليها يسترضيها فامتنعت عليه، وأغلقت على نفسها باب مجلسها، فأمر أن يسد الباب عليها من خارجه ببدر من الدراهم، استرضاء لها، واستعطافا لوصلها، فلما علمت ذلك، فتحت الباب وتساقطت البدر من كل جانب، فأخذتها وكبّت على رجله تقبله .

وإذا واصلنا سيرنا إلى العصر الذهبي بالأندلس عصر عبد الرحمن الناصر (300 ـ 350) الذي تسمى أيام حكمه بالأندلس بأيام العروس، لازدهار البلاد ازدهارا لم تعرف له مثيلا من قبل. فقد تقدمت الأندلس في هذا العصر تقدما عظيما، في كل المجالات العلمية، منها والأدبية والاقتصادية والسياسية. ولعبت المرأة الأندلسية في هذه الفترة دورا هاما في السياسة والعلم والأدب. وكانت أم عبد الرحمن الناصر نصرانية تدعى «مارية» كما كانت زوجته «رسيس» مقربة إليه، يحبها ويُجلُّها، ولا يكاد يرفض لها طلبا أو رغبة، فقد كانت تخرج معه في موكبه، وهي تلبس قلنسوة، وتتقلد سيفا، ويشق معها شوارع العاصمة قرطبة، وهي على هذه الحال. حتى يبلغا مدينة الزهراء، هذه المدينة التي بناها بضواحي قرطبة، بناءاً على رغبة الزوجة المدللة المفضلة، وجلب لها الصناع والرخام والزخارف من الشرق، ومن الغرب، حتى غدت مضرب الأمثال، في الكمال والروعة والجمال.

ولا ننسى ما كانت تتمتع به «صبح» زوجة الخليفة الحكم بن عبد الرحمن، الملقب بالمستنصر (350-366) وكانت نصرانية نافارية، من بنات ملوك الإسبان، بالشمال، وقد أُخذت أسيرة، في إحدى المعارك الطاحنة، والتي انتصر فيها المسلمون على الإسبان، وهي تتمتع بقسط وافر من الجمال.

وقد أنجبت للحكم هشاماً، الذي تولّى الخلافة بعد وفاة أبيه (366-392)، ويلقب بالمؤيد، وتولى بعده الخلافة أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجول.

وفي عهد هشام المؤيد، سطع نجم المنصور بن أبي عامر، حيث تولى الحجابة، ورئاسة الدولة، بمساعدة «صبح» لأن هشاما كان صغيرا. ومع مرور الأيام أصبح المنصور هو الحاكم الحقيقي، فنظم الجيش، وشجع العلم، وقهر الأعداء. وكان يباشر بنفسه قيادة المعارك، ويصحب معه الشعراء، والكتاب، والعلماء، ويعقد معهم جلسات بحث، ومناظرة، وأنشأ ديوانا رتّب فيه أسماء الشعراء، والكتاب، وجعل لكل واحد منهم مرتبا شهريا يتقاضاه حسب درجته ومكانته العلمية، والأدبية.

وهكذا كان عهد الحاجب المنصور العامري عهد ازدهار، عرفت فيه الأندلس استقرارا ورخاء، وقوة ومهابة، لم تعرفه منذ زمان.

ولم تكن المرأة الأندلسية لها وجود في الخفاء فقط، بل كانت تتولّى المناصب العليا في الدولة، فهذه «مزنة» كانت كاتبة للخليفة الناصر لدين

اللّه، كما كانت «لبنى» كاتبة للخليفة المستنصر باللّه، وكانت شاعرة وعالمة بالنحو، والعروض، والحساب، وذات خط جميل.

أما إذا عدنا إلى مشاركة المرأة في الميدان الشعري فإنّ استعراض كل شاعرات الأندلس، ولو باختصار شديد في مقال واحد يكاد يكون مستحيلا، وظلما للأدب وأهله، ولكننا سنحاول جاهدين استعراض أشهرهن، والإشارة إلى ما لهن من إنتاج، وما طرقن من أبواب الشعر، وأجدن فيه، بادئين حسب التسلسل الزمني، فأول شاعرة أندلسية المولد والنشأة والتكوين نعثر عليها في كتب الأدب والتاريخ هي :

ـ حسانة التميمية : [8] .

حسانة بنت أبي المخشي عاصم بن زيد، أحد قدامى الشعراء بالأندلس، تنتمي إلى قبيلة تميم العربية المعروفة، ولدت في أواخر المائة الثانية، تعلمت الأدب والشعر على والدها الذي كان شاعرا، فقد مدح الأمير الأموي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن (180 ـ 206) فنال إعجابه، وأجازه، حتى إذا توفي والدها وهي لا تزال بكرا، لم تتزوج بعد، نراها تتجه إلى ممدوح أبيها الحكم، وتمدحه بشعر جزل متين، فيقع شعرها من الأمير موقعا حسنا، ورغم ما كان معروفا عنه من القسوة والغلظة،

8 ـ أنظر ـ ترجمتها : أ ـ نفح الطيب للمقري، تحقيق : د / إحسان عباس، جـ 4، ص / 167 ـ 168 ترجمة : 2.
ب ـ أعلام النساء لعمر رضا كحالة، 1 : 256 ـ 157.
جـ الأدب الأندلسي للدكتور مصطفى الشكعة : 121 / 126.

ولكنه كان يطرب للشعر، ويخضع لسلطان الهوى والفن، إذ كان هو بدوره شاعرا. والقصيدة التي تأثر بها الحكم وأجازها عليها لم يبق منها إلا بعض أبيات هي :

إنـي إليك أبـا العاصـي موجعـة ... أبا المخشّي سقتـه الواكـف الـدّيمُ
قد كنتُ أرتعُ في نُعمـاه عـاكـفةً ... فاليوم آوي إلـى نعمـاك يا حكَـم
أنت الإمام الذي انقاد الأنـام لـه ... وملّكتـه مقاليـد النهىُ الأمـم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفا ... آوي إليـه ولا يعـرونـي العَـدمَ
لا زلت بالعزة القعسـاء مرتـديـا ... حتـى تـذل إليك العَربُ والعَجَم

فهذه المقطوعة كما نرى واضحة المعنى، منسقة الألفاظ، قوية الجرس الموسيقي، متسمة بعمق الشكوى التي تمس شغاف القلوب، فقد استطاعت أن تغزو قلب الحكم القاسي، وتلينه لها، وتفتح أذنيه إلى شكواها، وقد ضربت له على الوتر الحساس، فالأمويون بالأندلس كانوا يحنون دائما إلى مجدهم الآفل بالمشرق، ويحلمون بالعودة إلى عاصمة خلافتهم ـ دمشق ـ فاقرأ إن شئت للمرة الثانية البيتين الثالث والأخير:

أنت الإمام الـذي انقـاد الأنـام لـه ... وملّكتـه مقـاليد النهـى الأمـم
لا زلت بالعـزة القعساء مرتـديـا ... حتـى تذل إليك العـرب والعجـم

ونرى أبا العاصي الحكم يستحسن الشعر، ويعجب به، فيأمر لها بإجراء مرتب منظم، ويكتب إلى عامله بإقليم البيرة ـ غرناطة ـ حاليا، يأمره بالإحسان إليها، والاهتمام بأمرها، والرعاية بمصالحها. فتعود الشاعرة

حسانة إلى مسقط رأسها البيرة، وقد نالت مرادها، وحملت معها هدايا ثمينة، وعطاء عظيما، تقديرا وشرفا.

حتى إذا مات الحكم، وتولى الحكم بعده ابنُه عبدُ الرحمن الأوسط (206ـ238) نرى حسانه تشد الرحال إلى قرطبة من جديد، وتلتجىء إلى الأمير الجديد، وتستغيث به مما نالها من جور والي «البيرة» جابر بن لبيد، الذي أوقف لها ذلك المرتب، التي كانت تأخذه في عهد الحكم، فقد استطاعت الشاعرة أن تصل إلى قلب عبد الرحمن بن الحكم بسهولة، وتؤثر فيه، فتمدحه بقصيدة فاهتز لشعرها، واستمع لندائها، وشكواها، فغضب على الوالي، وعزله عن الولاية، وأكرم الشاعرة أيما إكرام وأقر لها جميع ما كانت تتمتع به في حياة والده الراحل.

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي ... على شحَطٍ [9] تصْلى بنار الهواجـر

ليجبـر صدْعي إنـه خيرُ جـابـرٍ ... ويمنعنـي مـن ذي الظلامة جـابـر

فـإني وأيتـامـي بقبضـة كـفـه ... كذي ريش أضحى في مخالب كاسر

جـديرٌ لمثلـي أن يـقـال مَرُوعَةٌ ... لموت أبي العاصي الذي كان ناصري

سقـاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى ... علـيَّ زمـانٌ باطشٌ بـطـشَ قـادر

أيمحـو الـذي خطتـهُ يمنـاه جابرٌ ... لقـد سام بالأملاك إحـدى الكبائر

ولما أكملت الشاعرة إنشاد قصيدتها، رفعت إلى الأمير خطّ والده، وحكت له جميع ما أصابها، بعد ثكلها وأنها وأيتامها في حالة ضيق وعسر شديدين، فرقّ لها الأمير، وأخذ منها خط أبيه، فقبَّل الصَّكَّ، ووضعه

9 ـ شحط المكان يشحط بفتح الحاء : بعد.

على عينيه، وقال: «تعدى ابن لبيد طوره، حين رام نقض رأي الحكم، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده، ونحفظ بعد موته عهده، انصرفي يا حسّانة، فقد عزلته لك، ووقّع لها بمثل توقيع أبيه، فقبّلتْ يده، وأمر لها بجائزة، فانصرفت تجُرّ معها الهدايا، وتغمرها البشرى، فلما وصلت إلى بلدها «البيرة» بعثت إلى الأمير بقصيدة فيها الشكر والمدح والثناء جاء فيها:

ابن الهشامين خَيْرُ الناس مأثرةً ... وخير منتجع يوما لرُوّاد

إن هزّ يوم الوغى أثناء صعدته ... روّى أنابيبها من صرف فِرصاد [10]

قل للإمام أيا خيرَ الورى نسبا ... مقابلا بين آباء وأجداد

جوّدت [11] طبعي ولم ترض الظُلامة لي ... فهاك فضل ثناءٍ رائح غاد

فإن أقمتُ ففي نُعماك عاطفة ... وإن رحلتُ فقد زوّدتني زادي

وإذا خطونا خطوة أخرى نحو القرن الثالث الهجري وجدنا أول من يعترض طريقنا هي الشاعرة

ـ عائشة القرطبية: [12] (ت 400 هـ)

عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم، ولدت بقرطبة، وبها نشأت

10 ـ الفرصاد: اسم يطلق على صبغ أحمر، والمراد هنا دم الأعداء.

11 ـ جوَد الشيء: أجاده، يقال تجاودوا في المحاورة انظروا أيهم أجود حجة.

12 ـ أنظر ترجمتها ـ أ ـ نفح الطيب للمقري، تحقيق: د / إحسان عباس، 4: 290 ترجمة: 17.

ـ ب ـ كتاب الصلة لابن بشكوال، 2 / 692 ترجمة: 1531.

ـ جـ ـ أعلام النساء، لعمر رضا كحالة، 6: 3.

ـ د ـ الاعلام للزركلي 4: 4

وتعلمت، وأخذت عن علماء وأدباء وشعراء عظام، حتى غدت عالمة وأديبة وشاعرة، يشار إليها بالبنان، ويقر لها بالسبق في ميدان الأدب، والشعر، والفصاحة والبيان، فقد وصفها المقري نقلا عن ابن حيان في كتابه المقتبس، وابن سعيد في كتابه «المغرب» بأنها من عجائب زمانها، وغرائب أوانها، لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يَعْدِ لها علما وفهما، وأدبا، وشعرا وفصاحة، يضاف إلى حسن خطّها، وجمال كتابتها، فقد كانت تكتب المصاحف.

ويبدو أنها ورثت الأدب عن عائلتها، وتثقفت بصفة خاصة على يد عمها «الشيخ» أبي عبد اللّه محمد بن الكتابي، الطبيب، صاحب كتاب »التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» [13].

والذي يتابع حياتها، وشعرها، وأخبارها، لا يملك إلا الإعجاب بها، والتقدير لملكتها. فهي شاعرة قديرة، متمكنة من اللغة، مطلعة على الأدب، في جميع أطواره، عفيفة، متدينة، طاهرة الذيل، ذات أخلاق فاضلة، تمدح الملوك والحكام، ولكن في غير مسكنة ولا مذلة. فقد دخلت يوما على الحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الملقب بالمظفر (392 ـ 399) وبين يديه ابن له، فارتجلت في الحال:

أراك اللّه فيه ما تريد ... ولا برحت معاليه تزيد

فقد دلت مخائله على ما ... تؤمله وطالعه السعيد

13 ـ حققه الدكتور إحسان عباس ونشرته دار الثقافة عام 1966 ببيروت ـ لبنان.

تشوقت الجيـــاد لـــه وهُـــزّاك حســـام هـــوىً وأشرقت البنود
فسوف تـــراه بدرا في ســـمـــاء من العليـــا كواكبـه الجنود [14]
وكيف يخيـــب شبلٌ قـــد نمتْه إلى العليـــا ضراغـمـة أســـود
فأنتم آل عـامـــر خـيـــرُ آل زكا الأبناء [15] منكـم والجـدود
وليدكـم لـــدى رأيٍ كـشـيـخ وشيخكُـم لـــدى حـــرب وليد

ومما يستدعي الانتباه أن هذه المقطوعة الشعرية العذبة، وما فيها من معان سامية، ومديح صادق، قد جاءت مرتجلة، ومن وحي الوقت والساعة، فأي مديح أفضل من أن يكون آل عامر، وليدهم رأيه سديد، وتفكيره مستقيم، وشيخهم ضربه للأعداء شديد، وبأسه في الحرب عنيد، فالصغار مثل الشيوخ في أصالة الرأي، وإصابة الغرض، والشيوخ كالشباب في شدة البأس وقوة العزيمة، والثبات في الأهوال والمعارك.

ويبدو أن شاعرتنا عائشة لم تؤثر فيها الحياة القرطبية الناعمة، بما فيها من مفاتن ومغريات، بل بقيت فيها دماء العروبة نابضة، فيها إباء وكبرياء، وترفع، وعلُوّ النفس. فقد فضّلت أن تعيش عذراء، من أن تتزوج غير كفء لها، خطبها بعض الشعراء ممن دونها حسبا ونسبا، فلم ترض أن يكون لها قرينا وبعلا، فكتبت إليه تُعنفه وتزجره وتؤدّبه، لأنه لم يعرف قدره، ولم يلزم حدوده، وهي تعترف بأنها أنثى، ولكنها لا تقبل أن تكون مناخا لكل طارق.

14 ـ في أعلام النساء : هذا البيت ذكر بعد البيت الذي بعده.
15 ـ في أعلام النساء: الآباء بدل الأبناء.

أنا لبــوة لكننـــي لا أرتـــضـي نفسي مناخـا طول دهري من أحـد
ولو أنني أختار ذلــك لم أجـــب كلبا وكم غلقت سمعي عـن أســد

وهكذا قدر لعائشة القرطبية أن تموت عذراء، وأن تلتحق بربها دون أن يكون لها زوج، لأنها لم تجد من يماثلها، وذلك في حدود الأربعمائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم. بعد أن تركت وراءها شعرا كثيرا، وخزانة كبيرة من الكتب إذ كانت لها عناية خاصة بجمع الكتب.

ومن شاعرات القرن الرابع الهجري بالأندلس :

ـ حفصة بنت حمدون الحجارية : [16] (من القرن الرابع)

هذه الشاعرة يبدو أنها كانت ذات مال وجاه عريضين، يصفها ابن الأبار بأنها عالمة وأديبة وشاعرة، وهي أول شاعرة أندلسية نعثر لها على شعر غزلي رقيق.

وذكر ابن سعيد أنها من أهل المائة الرابعة، وأن بلدها يفخر بها، لجودة شعرها، وغزارة إنتاجها، وأن وادي الحجارة بلدها، وهذه المدينة القريبة من مدريد، وطليطة، كان لها رجال عظام من العلماء، وفحول من الشعراء،

16 ـ أنظر ترجمتها في نفح الطيب للمقري، تحقيق : د / إحسان عباس، 4 : 285 ـ 286. ترجمة : 13
أ ـ المغرب في حُلى المغرب لابن سعيد المغربي، تحقيق : د / شوقي ضيف، جـ 2 / ص 37 ـ 38 ترجمة : 357.
ب ـ نفح الطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 6 : 21 ـ 22.
ج ـ الأعلام للزركلي. 13 - 2 : 292

فلا عجب أن تخرج منها هذه الشاعرة العالمة، والأديبة، والغزيرة الإنتاج، ولكن هذه الغزارة لم يصلنا منها إلا النزر القليل، الذي لا يشفي الغليل، مع الأسف الشديد.

ومن شعرها القليل الذي وصل إلينا، قولها في حبيب لها :

لـــي حـبيب لا ينثنـي لعتــاب [17] وإذا مــا تــركتُـه زاد تيــهــا
قال لي : هـــل رأيت لي مـن شبيه ؟ قلت أيضا : وهل ترى لي شبيها ؟

وذكر لها ابن فرج في كتابه «الحدائق»:

يــا وحشــتـــي لأحبتـــي يــا وحـشـــة متمــاديــة
يــا ليـــلــة ودعـتـهـــــم يــا ليلة هـــي مــاهــية

ومـدحت أحـد الـوجـهاء الأغـنيـاء، الـكـرمـاء، يـدعـى ابـن جميلٍ، فاتخذت من اسمه وسيلة لإبداء ما كانت تخفيه في نفسها نحوه من عاطفة، وحب وهيام، ولكن ذلك في أدب وتهيب واحتشام :

رأى ابن جميل أن يُرى الدهر مجملا فكل الورى قد عمّهم سَيْبُ نعمته
له خلق كالخـــمـــر بـــعـــد امتزاجها وحُسْنٌ فما أحلاه من حين خلقته
بوجهٍ كمثل الشمـــس يدعـــو ببشره عُيــوناً ويعيشها بإفـــراط هيبتــه

والعبيد والخدم فيهم «مكر» وأحيانا، خبث متعمد، وخاصة إذا كان المتصرف فيهم امرأة محترمة، ذات حياء وأصالة، وفي عصر حفصة قال المتنبي، يصف العبيد الماكرين :

لا تشتر العــبـــد إلاّ والعصا معــه إن العبيـــد لأنجـــاس منا كـيـــد

17 ـ في المغرب : بعتاب بدل لعتاب.

ولذا نرى الشاعرة تتبرم من عبيدها، وتضيق ذرعا من بلادة بعضعم، ومن مكر الأخرين، فهي تستغيث من الجاهلين البلداء منهم ومن الأذكياء النجباء على حد سواء.

يــا رب إنّــي مــن عبيــدي علـى   جمر الغضاما فيهمُ مــن نجيب [18]

إمــا جَهُــول أبلــهٌ مــتــعــب   أو فطــنٌ مــن كيــده لا يُجيبُ

وإذا واصلنا السير وأسرعنا الخطى، وأطلنا على القرن الخامس الهجري وجدنا فيضا هائلا من الشواعر الأندلسيات، فقد ازدهرت سوق الشعر، في الأندلس. ونفقت بضاعة الأدب في هذا القرن، بشكل لم ير له مثل من قبل، فلا تكاد تخلو مدينة أندلسية من شاعرة مرموقة، وأديبة فذة، يشار إليها بالبنان، وتشيد بذكرها الألسنة والأقلام، فمنهن :

ـ حمدة بنت زياد المؤدب (ت نحو 600) [19]

ولدت حمدة أو حمدونة على اختلاف بين الرواة بنت زياد المؤدب، وعاشت على واد جميل أخاذ يقال له وادي آش، يقع قرب غرناطة المدينة

---

18 ـ الغضى : شجر من الأثل، خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمانا طويلا، لا ينطفىء. واحدته غضاة، وأهل الغضى أهل نجد لكثرته هنالك.

19 ـ أنظر ترجمتها : أ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب، تحقيق : محمد عبد اللّه عنان، جـ 1, ص 489ـ490.

ب ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، جـ 2, ص / 145 ـ 146 . ترجمة : 451.

جـ ـ نفح الطيب للمقري، تحقيق: د / إحسان عباس، 4 : 287 ـ 289 ترجمة : 16.

د ـ رايات المبرزين وغايات المميزين : 94 ـ 95 ترجمة: 86. وجعل لها عنوان: «خنساء العرب» لابن سعيد الأندلسي (ت : 685 هـ). تحقيق : الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي مطابع الأهرام التجارية، القاهرة : 1393 هـ ـ 1973 م.

هـ ـ أعلام النساء لعمر رضا كحالة. 1 : 292 ـ 293.

و ـ الأعلام للزركلي . 2 : 305.

التي تحوطها البساتين والأشجار، وتحف بها الأزهار كما تحف الأهداب بالعيون، فيها جمال وروعة، وفيها سحر وجمال، ومدينة حمدة تابعة لها، ومكملة لعظمتها وأناقتها.

يصف أبو عبد اللّه محمد لسان الدين بن الخطيب حمدة بانها نبيلة شاعرة وكاتبة.

ويصفها ابن سعيد مع أختها زينب بأنهما «شاعرتان أديبتان، من أهل الجمال، والمال، والمعارف، والصون، على أن حب الأدب كان يحملهما على مخالطة أهله، مع صيانة مشهورة، ونزاهة موثوق بها».

ويذكر ابن سعيد بأن والده قال في حمدة: «هي شاعرة الأندلس» على أيامها، كما ينعتها عمّه بأنها خنساء المغرب، لقوة شعرها، وصدق عاطفتها، وحرارة أسلوبها، وهي صاحبة المقطوعة التي نالت إعجاب الأدباء، وتقديرهم على مر العصور والأيام، وذلك لما تشتمل عليها من سحر البيان، وروعة التشبيه، وجمال التصوير، وبلاغة المعنى وحسن الخيال، وقوة السبك.

والمقطوعة هي :

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ ... سقاه مُضاعَفُ الغيث العميم

حللنا دوحه فحنا علينا ... حنوَّ المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زُلالا ... ألذَّ من المُدامة للنديم

يصدّ الشمس أنّى واجهتنا ... فيحجبها ويأْذَنُ للنسيم

يُروعُ حصاه حاليةَ العذارى ... فتلمسُ جانبَ العِقد النظيم

وقد أخذ بعض النقاد على الشاعرة استعمال كلمة «المرضعات»، وكان الأفضل لها تعويضها بالأمهات، لأن المرضعة قد تكون أُمًّا وقد تكون غيرها.

ويبدو أن المؤرخ المشرقي «ابن العديم» صاحب كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب» قد استكثر على الشاعرة الأندلسية أن تقول مثل هذا الشعر الجميل، فقال: إن الأبيات للشاعر المشرقي المنازي، مما جعل أبا جعفر الأندلسي الغرناطي نزيل حلب، يتصدّى للرد على ابن العديم فيقول: «إن هذه الأبيات نسبها أهل هذه البلاد ـ المشرق ـ للمنازي من شعرائهم، وركبوا التعصُّب في جادة ادّعائهم، وهي أبيات لم يخلبها غير لسانها، ولا رقم بريدها غيرُ إحسانها.

ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا، بالأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود، ويتصف بلفظة الموجود [20].

فإذا ظن بعض الأدباء على شاعرتنا أن تجود قريحتها بمثل الأبيات السابقة، فماذا يقولون في المقطوعة التالية؟ وهي لا تقل روعة وجمالا من الأولى. هذه المقطوعة التي تصف فيها الشاعرة الفاتنة المفتونة، خروجها مع صبية المدينة إلى السباحة والاستحمام في وادي شنيل بغرناطة، وفي المغرب: خرجت ـ حمدة ـ إلى وادي مدينة آش مع جوارٍ، فسبحتْ معهن وكان لها منهن هوًى [21] فلما نضّت عنها ثيابها وعامت قالت :

---

20 ـ نفح الطيب للمقري، 4 : 289 تحقيق د / إحسان عباس.
21 ـ المغرب في حلى المغرب، 2 : 146.

أباح الدمعُ أسراري بوادي ... له للحسن آثارٌ بوادي [22]

فمن نهر يطوف بكل أرض ... ومن روض يرفُّ بكل وادي

ومن بين الظباء مهاة إنس ... سبت [23] لُبّي وقد ملكت فؤادي

لها لحظ ترقده لأمرٍ ... وذاك الأمر يمنعني رقادي

إذا سدلت ذوائبها عليها ... رأيت البدر في أفق السواد

كأن الصبح مات له شقيق ... فمن حزن تسربل بالحداد

أرأيتم هذه المقارنة البارعة؟ بين بياض الوجه وسواد الشعر، الذي يغطي الرأس والوجه، وينزل على الكتفين، وأثناء السباحة والاستحمام يعلو فوق الماء. ألاحظتم هذه الصورة الجميلة التي تعقدها بين هذه الحسناء المكتملة الشباب، وبين البدر في أفقه أثناء الليل؟ وأخيرا انظروا إلى البيت الأخي، وما فيه من روعة التشبيه، وجمال التعبير، فبزوغ الفجر، وما فيه من حسن وبهاء، وظهور بياض ناصع في سواد قاتم، فهو شبيه بحسناء فاتنة، علمت بوفاة أخ شقيق لها، فأسرعت إلى لباس السواد، إعلانا للحزن، وإظهارا للنازلة الفاجعة.

ولعل من المناسب أن نذكر بأن بعض المدن الأندلسية كانت تلبس البياض في أيام الحزن، والحداد، على عكس ما هو معروف من لبس السواد أيام الكوارث والمصائب خاصة في الوفيات، والمآتم: قال الحلواني:

إذا كان البياض لُباسَ حزن ... بأندلس فذاك من الصواب

ألم ترني لبست بياض شعري ... لأني قد حزنت على الشباب ؟

22 ـ في أعلام النساء : ورد عجز هذا البيت: له في الحسن أسرار بوادي. وكذا في رايات المبرزين لابن سعيد.

23 ـ في نفح الطيب : لهالبّي بدل سبت لبّى.

حقا إن هذا التعليل الذي اعتمد عليه الشاعر لتعليل منطقي مقبول، ولذلك نرى شاعرا آخر يشيد بهذه العادة في الحزن، ويؤكد بأن ذلك من فطن أهل الأندلس، وذكائهم :

ألا يــا أهــل أندلــس فطنــتــم — بلـطـفـكـم إلى أمــــر عـجـيــب

لبستــــم في مأتمكـم بيــاضــا — فجئتـم مـنـه في زي غــريـــب

صدقتم فالبياض لبــاس حـــزن — ولا حُــزن أشــدّ من المشيب [24]

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى شاعرتنا حمدة، ونتابع حديثنا معها، ونقف وقفة قصيرة حول هذه المقطوعة السحرية الموحية :

ولما أبـــي الواشـــون إلاّ قـتـالـنـا — وما لهُم عنــــدي وعنــــدك من ثـــار

وشنوا على أسماعـنـا كــلّ غـارة — وقَلّ حمـاتـــي عنــد ذاك وأنصـــاري

غزوتهمُ من مقلتيك [25] وأدمعـي — ومن نَفسي بالسيف والسيل [26] والنار

وقبل أن نغادر الحديث عن حمدونة إلى غيرها، أحب أن أشير إلى أن هذه الأبيات أيضا قد نسبها بعض المشارقة إلى غيرها وأن أبا جعفر الأندلسي قد تصدّى للرد عليهم، ونقل كلام الرعيني: وقال : إن مؤرخي بلادنا نسبوها لحمدة من قبل أن يوجد المنازي الذي ينسبها له أهل المشرق وقد رأيت أن أذكر كلامه برمته ونصه: كانت من ذوي

24 ـ أنظر نفح الطيب للمقري، جـ 2 ، ص / 404. محمد محي الدين عبد الحميد ـ دار الكتاب العربي ببيروت ـ لبنان.

25 ـ في رايات المبرزين : من ناظريك

26 ـ في المغرب في حُلى المغرب : والماء بدل : السيل

الألباب، وفحول أهل الأداب، حتى إن بعض المنتحلين تعلق بهذه الأهداف وادّعى نظم هذه البيتين :

ولما أبـــى الوشـــوان إلا قتالنـــا وما لهم عندي وعنـــدك مـــن ثـــار

وشنوا علـــى أسماعنا كـــل غارة وقلّ حماتي عـنـد ذاك وأنصـــاري

لما فيهما من المعاني والألفاظ العذاب، وما غره في ذلك إلا بُعد دارها، وخلوّ هذه البلاد المشرقية من أخبارها [27].

ـ نزهون الغرناطية (ت 550 هـ ـ 1155 م)

لا نغادر غرناطة الفيحاء قبل أن نقف عند شاعرة مرموقة، وأديبة مشهورة موصوفة بخفة الروح، وحفظ الشعر، والمعرفة بضرب الأمثال، مع ما تتمتع به من جمال فائق، وقوام لائق، وحسن رائق، لها مع الشعراء والوزراء مساجلات فكهة، ومحاورات شيقة، فهي تمثل شاعرة المدنية الأندلسية، في القرن السادس الهجري، حيث نراها قد ألقت بنفسها في الحياة الأدبية بلا تحفُظ، وغمست نفسها في المجون، غمسا كاملا حتى لـقـبت بشـاعـرة غرناطة المجونية، بحيث لا تتورّع من مخالطة الرجال، ومطارحتهم كل جوانب الحياة الشريفة منها، وغير الشريفة [28].

27 ـ أنظر نفح الطيب للمقري، تحقيق د / إحسان عباس ، 4 : 288 ـ 289.

28 ـ ترجمتها في : أ ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، 2 / 121. ترجمة 438.

ب ـ رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد : 91 ـ 92 ترجمة 82.

جـ ـ بغية الملتمس، للضبي، / 546 ترجمة : 1591.

د ـ الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب،1/ 424 ـ 427.

هـ ـ نفح الطيب للمقري، 4 / 295 ترجمة 24. تحقيق د / إحسان عباس.

و ـ أعلام النساء لرضا كحالة. 5 / 167 ـ 170.

ز ـ الأعلام للزركلي ، 8 : 332.

ولذلك نرى ابن سعيد يصفها بالشاعرة الماجنة، الكثيرة النوادر، ولعل ذلك المجون الذي جمع بينها وبين الشاعر أبي بكر المخزومي الأعمى، يوضح لنا أحسن توضيح مدى ما وصلت إليه الشاعرة، ومجتمعها الغرناطي، من التحلل الأخلاقي، والتفسخ، وقلة الحشمة والحياء.

فقد دعا الوزير أبو بكر بن سعيد الغرناطي جماعة من أهل الأدب والفن، إلى ندوة من ندواته، الكثيرة المألوفة، وحضر المجلس الشاعرةُ نزهون، والشاعرُ الأعمى المخزومي، فلما استوى بالشاعر المجلس، ووجد نفسه بين روائح الند، والعود، والأزهار، وبين الموسيقى، والغناء، والأوتار، قال :

دار السَّعِيديّ ذي أم دار رضوان ... ما تشتهي النفسُ فيها حاضرٌ داني ؟
سقت أباريقها للند سحبُ ندىً ... تُحدَى برعْدٍ لأوتار وعيدان
والبرق من كل دَنٍ ساكبٌ مطراً ... يحيا به ميتُ أفكارٍ وأشجان
هذا النعيم الذي كنا نُحَدِّثُه ... ولا سبيل له إلاّ بآذان

فلما سمعت نزهون المقطوعة التفتت إليه قائلة :

وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجمر ندٍ وغناء وشراب، فَتَعْجَبَ من تأتيّه وتشبهه بنعيم الجنة، وتقول: ما كان يعلم إلا بالسماع، ولا يبلغ إليه بالعيان ولكن من يجيىء من حصن المدور ـ بلد المخزومي ـ وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفة بمجالس النعيم؟ وإلى هنا، يتحرك المخزومي بعنف، ويتنحنح، ويشتم من صوته رائحة السخط والغضب، ويتساءل

مستهزئا من هذه الفاضلة؟ فتجيبه نزهون: عجوز في مقام أمك، فقال ـ سريعا ـ كذبت ما هذا صوت عجوز وإنما هذه نغمة محترفة تشم روائح منها على فرسخ...

وهنا يحاول الوزير صاحب الدعوة، أن يتدارك الموقف، ويلطّف الجو، ويعيد الشاعرين إلى مقام الأدب والليقاقة، ولكن بلا جدوى ـ فهذه ماكرة ماجنة، وهذا شاعر أعمى فكيف يستطيع الوزير كبح جماح الشاعرين، وإرجاع الشاردين إلى الجادّة والصواب فقال الوزير: هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأديبة، فقال: سمعت لا أسمعها الا خيراً، ولا أراها إلاّ أيراً، فقالت له: يا شيخ سوء تناقضت وأي خير للمرآة مثل ما ذكرت.

ففكر ساعة ثم قال المخزومي :

على وجه نزهونٍ من الحسن مسحةً ... وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا [29]

قواصدُ نزهونٍ تَوارِك غيرها ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

قالت نزهون على الفور :

قل للوضيع مقالا ... يُتلى إلى حين يُحشر

من المدور أنشئت ... والخرا منه أعطر

حيث البداوة أمست ... في أهلها تتبختر

29 ـ يروي الشطر الثاني من هذا البيت هكذا : وتحت الثياب العار لو كان باديا وهو مأخوذ من ذي الرمة حيث تقول :

على وجه مي مسحة من ملامحة ... وتحت الثياب العار لو كان باديا

كما أخذ البيت الثاني من قول المتنبي في مدح كافور الأخشيدي :

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر انتقل السواقيا

لــــذاك أمسيـت صـبـــا بـكــل شــــيء مُـــــدوّر
خلقـــتَ أعمـــى ولكـــن تهيــم في كُـــــلّ أعـــور
جازيتُ هـجــواً بــهـجـو فقل لعنتَ [30] من أشعر ؟
إن كنــتُ في الخلـق أنثـى فإن شعـــري مُـذكّـــر

ويروي المقري أنها أجابته بأبيات أخرى هي :

إن كـــان ما قـلــت حقا مـــن بـعــض عـهـد كـريم
فـصـــار ذكـــري ذميمـا يُعـــزى إلى كــل لـــوم
وســـرتُ أقبــــحَ شيء في صــــورة المخـــزومـــي

فقال لها اسمعي :

ألا قل لترهزنـة ما لـهـــا تجر من التـيـــه أذيـــالها
ولو أبصرتْ بشة شمّرت كما عوّدتني ســر بـــالـهـا

وهنا نرى الوزير أبا بكر بن سعيد يتدخل بشدة، ويقسم أن لا يزيد أحدهما على الآخر بكلمة هجاء، ولكن المخزومي يحييه قائلا: أأكون هجاء الأندلس، وأكف عنها دون شيء؟

فيشتري الوزير منه عرضها، ويسكت المخزومي، ويخبو التراع، وتتحول هذه الخصومة إلى الود والمصاحبة، فقد أصبحت نزهون إحدى تلميذات المخزومي، تتلقى عليه الأدب، واللغة، وتحضر حلقات دروسه باستمرار [31].

30 ـ في نفح الطيب : لعمري بدل لُعنتْ.

31 ـ أنظر : أ ـ النفح المقري ، جـ6, ص / 31 - 34 تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد
ب ـ نفح الطيب. تحقيق د / إحسان عباس ، 1 : 190 ـ 193.

تروي كتب الأدب أن الشاعر أبا بكر الكُتَنْدي دخل يوما على المخزومي، فوجد نزهون تدرس عليه، فأراد مداعبته بالشعر، ويقول له: إن تلميذته فتنة للناظرين، وأن نعمة البصر قد فوتت عليه هذه المتعة، فقال أبو بكر الكتندي للمخزومي أجز :

لو كنت تبصر من تكلمه

فأفحم وأطال الفكر، فما وجد شيئا، فقالت نزهون : لغدوت أخرس من خلاله

البدر يطلع من أزّرته   والغصن يمرح في غلائله

تلك هي قصتها مع المخزومي التي انتهت بسلام. وتذكر كتب التاريخ الأدبي أن المخزومي كان حيا بعد الأربعين وخمسمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

أما قصتها مع الشاعر ابن قزمان، فهي لا تقل عن قصتها مع المخزومي فقد جاء ابن قزمان إلى غرناطة، واجتمع به جماعة من الأدباء، بينهم نزهون. وذلك بدعوة من الوزير أبي بكر بن سعيد، في منزله، فأنشد هم ابن قزمان بعض شعره الجميل، وكان يتوقع كلمة استحسان وتشجيع من الحاضرين، فإذا بالشاعرة نزهون تجابهه كعادتها بكل بذاءة ووقاحة، أحسنت يا بقرة بني إسرائيل، إلا أنك لا تسر الناظرين، فيجيبها ابن قزمان إن لم أسر الناظرين، فأنا أسر السامعين، وإنما يطلب سرور الناظرين منك يا فاعلة يا صانعة. ومن شدة غضبه، وفقدان السيطرة على توازنه، أسرع إلى بنت العنب يشربها بنهم، لعلها تنسيه ما سمع، فلما تمكن

السّكر منه، قام متمايلاً، فيسقط في بركة ماء كانت بالمجلس، فلم يخرج منها إلا وهو قد شرب كثيرا من الماء، وثيابه مبللة، فقال: اسمع يا وزير :

ايه أبا بكر- ولا حول لي ... بدفع أعيانٍ وأنذال
وذات فرج واسع دافق ... بالماء يَحكي حالَ أذيالي
غرَّقْتني في الماء يا سيدي ... كَفِره بالتغريق في المال

فأمر الوزير بتجريد ثيابه، وخلع عليه ما يليق به، ومرَّ عليهم يوم بُعدَ عهدهم به من متعة، ونعيم، وشراب، وغناء، وترنيم، وهكذا نرى الوزير الغرناطي ابن سعيد يحمي الشاعرة مرتين، ويشتري عرضها بالإحسان إلى من أساءت إليهم.

لأن الوزير على ما يبدو كان على صلة وطيدة بها، وأنه كان يهواها، ومغرما بشعرها، وله معها مراسلات معروفة، ومداعبات مشهورة، كتب إليها مرة :

يا من له ألف خِلٍّ ... من عاشق وصديقٍ
أراكَ خليت للنا ... س منزلا في الطريق

فأجابته مطمئنة إياه، ومؤكدة له بأنه الحبيب المفضل، واستعملت التورية، بأن أهل السنة والجماعة يقدمون أبا بكر على غيره من الخلفاء، والصحابة الكرام، فكذلك هي تقدمه على غيره...

حللتَ أبا بكر محلا منعتُهُ ... سواك وهل غيرُ الحبيب له صدري
وإن كان لي كَمٌّ من حبيب فإنما ... يقدم أهلُ الحق حُبَّ أبي بكر

وكانت نزهون معروفة بالفكاهة، والنكتة والسخرية اللادعة، فقد قال لها بعض الثقلاء: ما على من أكل معك خمسمائة سوط؟ يريد أنه يرحب بكل أنواع العذاب ما دام في محبتها، ولكن لم يحسن التعبير عن مراده، وخانته لغته، فأجابته في الحال بأسلوب فكاهة الشاعر، ومشاعر الأنثى:

وذي شقوة لما رآني رأى له — تمنّيه أن يصلى معي جاحمَ الضرّْب
فقلت له كُلْها هنيئا فإنّما — خلقتُ إلى لبس المطارف والشّرب

وننهي حديثنا عن نزهون بهذه الأبيات الجميلة التي قالتها تصف إحدى ليالي البيض بغرناطة، وما أكثرها بالأندلس عامة :

للّه دُرّ ما أُحيسنها — وما أُحسين منها ليلةَ الأحد
لو كنتَ حاضرنا فيها وقد غفلت — عينُ الرقيب فلم تنظر إلى أحد
أبصرتَ شمسَ الضحى في ساعدي قمرٍ — بل ريمَ خازمةٍ في ساعدَيْ أسد

ونلاحظ أن معاني هذه المقطوعة تتفق مع مقطوعة أبي الحسن علي بن الزقاق ابن أخت ابن خفاجة (490ـ530) حيث يقول :

ومرتجة الأرداف أمّا قوامُها — فَلَدْنٌ وأما ردفها فرداح [32]
أَلَمّتْ فبات الليلُ من قِصَرٍ بها — يطير، ولا غيرُ السرور جناح
فبتُّ وقد زارت بأنعم ليلة — يعانقني حتى الصباح صباحُ
على عاتقي من ساعديْها حمائلٌ — وفي خصرها من ساعديَّ وشاح [33].

32 ـ الردف : العجز، ومؤخر كل شيء والرداح، يقال امرأة رداح : فخمة الردف، سمينة الأوراك.

33 ـ أنظر الأبيات في نفح الطيب، تحقيق: د / إحسان عباس، 4 : 298.

ـ ولاّدة : [34] (ت : 484 هـ ـ 1091 م)

عاشت في القرن الخامس الهجري ونشأت في مجتمع حضاري راق، وتنتسب إلى بيت عريق، وأسرة حاكمة أصيلة، هذه الشاعرة الساحرة الفاتنة ببديع شعرها، وجمال منظرها، وحسن مخبرها، هي ولادة بنت أمير المؤمنين المستكفي، محمد ابن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الرحمن الناصر، وُلدت بقرطبة، وترعرعت في بيت الخلافة، وتكوّنت على يد علماء أجلاء، وأدباء كبار، تولّى أبوها الحُكْمَ، وبويع بالخلافة لمدة قصيرة عام 416 م ولكنه أُبعد عنها، لما كان يتّصف به من الخلاعة والنذالة واللؤم، بحيث لم يذكره أحد ـ ممن قرأت لهم ـ من المؤرخين بخير، فقد اجتمعت فيه كل صفات الخساسة والوضاعة، كان عبيد شهواته، وضحية نزواته، فقد ثار عليه خصومه وهجموا عليه في بيته، فلبس لباس النساء، وفرّ إلى الثغر، وهناك مات ميتة مجهولة.

أما ابنته «ولادة» فقد بقيت بقرطبة، عاصمة الدولة، يجتمع عندها في

34 ـ ترجم لولادة عدد كبير من المؤرخين والأدباء منهم :

أ ـ المقري ـ نفح الطيب تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، 6, ص / 536 ونفح الطيب، تحقيق د / إحسان عباس، 4 : 205 ـ 211 . ترجمة 9.

ب ـ ابن دحية، «المطرب من أشعار أهل المغرب» ص / 7 : تحقيق: الدكتور مصطفى عوض الكريم، الخرطوم 1954.

جـ ـ ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 1 / 429 ـ 432.

د ـ الفتح بن خافان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، ص / 82 ـ 91 . تقديم : محمد العنابي. نشر المكتبة العتيقة تونس 1966.

هـ ابن سعيد المغرب في حلى المغرب، 1 . 65 . 66 . 143 ـ 180.

و ـ ابن بشكوال، كتاب الصلة، 2 / 696 ترجمة : 1540.

ز ـ الأعلام للزركلي، 9 : 135 - 136

قصرها الشعراء والأدباء، ويتنافس في نيل رضاها الأدباء والشعراء والوزراء.

فقال ابن دحية في كتابه «المطرب» يصف ولادة، ومكانتها الأدبية، وكانت في نساء زمانها، واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار مصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غُرّتها، ويتها لك أفراد الشعراء والكُتّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، فخلط ذلك بعلوّ نصاب، وسموّ أحساب، على أنها سمح اللّه لنا ولها، وتغمّد زللنا وزللها، أطّرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلّة مبالاتها، ومجاهراتها للذاتها.

وأما ذكاء خاطرها، وحرارة نوادرها فآية من آيات فاطرها [35]، ويبدو أن ولادة بعد رحيل والدها، وجدت نفسها طليقة، مالُها وفير، وجاهها عريض، ونبوغها في فنون الشعر والموسيقى والغناء شهير، ففتحت أبواب قصرها للأدباء والشعراء، ورجال الحكم، والدولة، تهيىء لهم كل ما يحتاجونه من نعيم، وما يسمعونه من أدب وشعر، ونقد سليم. وكانت تجلب إليها الأنظار، قبل الأذان والأذواق، فقد كتبت بماء الذهب على ثوبها الحريري الذي تضعه على كتفيها بيتين من شعرها، يثيران

35 ـ ابن دحية الكلبي : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص / 7 ـ 10.

الاهتمام، ويشدان إليها الأبصار، والعواطف، والأذهان، كتبت على الجانب الأيمن :

أنا والله أصلح للمعالي أوأمشي مشيتي وأتيه تيها

وعلى الجانب الأيسر :

وأمكّن عاشقي من صحن خدي وأُعطي قبلتي من يشتهيها

وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف [36].

ولادة وابن زيدون :

وكان ابن زيدون (ت 463 هـ) الوزير، والشاعر، والناقد، أحد المترددين إلى منتدى ولادة، يبتغي فيه تصيد الملفاتن، واغتنام المسرات، وإشباع النفس. والعقل لما يُلقى، ويقال، في كل المجالات، فأخذت منه ولادة قلبه، وعقله، وسلبتْه لبّه وتفكيره، فتعشقها أبو الوليد، وجرت له معها أخبار مشهورة، ومواقف معروفة، وكانت تداعبه أحيانا، بهجائها اللاّذع :

إن ابن زيدون على جهله يغتابني ظلما ولا ذنب لي

يلحظني شزرا إذا جئته كأنما جئتُ لأخصي علي

وتضرب له أحيانا أخرى المواعيد بالشعر، وتخرج بذلك عن المألوف، إذ جرت العادة أن يذهب الرجل إلى المحبوبة، ويتكبّد في سبيل ذلك المشاق والصعاب، لا أن تدق المرأة باب المحبوب، وتذهب إليه بنفسها بميعاد تضربها له مسبقا.

36 ـ المقري، نفح الطيب، 4 / 205.

فقد تحدث أبو الوليد عن أول لقاء لهما في ليلة طوياها في نعيم، ثم في عتاب أشبه بنعيم فقال :

كنت في أيام الشباب، وغمرة التّصاب، هائما بغادة، تُدعى ولادة، أرى الحياة متعلقة بقربها، ولا يزيدني امتناعُها إلاّ اغتباطا بها، فلما قُدِّر اللقاء، وساعد القضاء كتبت إلي :

ترقبْ إذا جنّ الظلام زيارتي ... فإنّي رأيتُ الليل أكتمَ للسرّ

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا ... وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر [37]

ويواصل ابن زيدون، واصفا أول لقاء بينهما على انفراد، وأنه ينتظر ساعة الميعاد قائلا :

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عبيره، أقبلت بقدٍّ كالقضيب، وردف كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل، فملنا على روض مدبج، وظلّ سجسبح، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودرُّ الطل منثور، وجيب الراح مزرور، فلما شببنا نارها، وأدركت منا ثأرها، باح كلٌّ منّا بحبه، وشكا أليم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني أقحران الثغور، ونقطف رُمان الصدور، ولما نشر الصبح لواءه، وطوى الليل ظلماءه، ودّعتها، وأنشدتها :

ودّع الصبرَ محبٌّ ودعك ... ذائع من سره ما استودعك

يقْرَع السنَّ على أن لم يكن ... زاد في تلك الخطا إذا شيّعك

37 ـ في نفح الطيب ورد هذا البيت :

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تُلح ... وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر.

يـا أخـا البـدر سنـاء وسنا   حـفـظ اللّه زمـانـا أطـلـعك

إن يطُلْ بـعـدك لـيـلي فلكم   بتُّ أشكو قـصـر الليل معك (38)

ذلك أول لقاء على انفراد بين الشاعرين، على ما يصرح به ابن زيدون، وتلك هي ولادة بقدها، وردفها، وعينيها النرجسيتين... ولم يكن هذا اللقاء هو الوحيد والفريد، بل تبعته لقاءات وسهرات، وليالي بيضاء هادئة، وها هو ابن زيدون يصف ليلة أخرى من تلك الليالي البيض، التي قضياها بين العود والغناء، وبين اللوم والعتاب، وسفك دماء الراح، إلى أن فصل بينهما الفجر والصباح، وقد أحضرت ولادة هذه المرة جاريتها «عتبة» لتقوم بالخدمة، وتنشر البهجة والسرور في المجلس بالغناء والعود، فغنّت لهما باختيارٍ وأمرٍ من ولادة :

أحبتنا إنـي بـلـغـت مـؤمـلـي   وساعـدنـي دهري وواصلني حبّي

وجـاء يهنّيني البشير بقـربـه   فأعطيتـه نفسي وزدت له قلبي (39)

ويبدو أن الشاعر هو الذي ذهب إليها في هذه المرة، وأنها كانت في انتظاره، وبعثت من يشرف على استقباله، وقد أعجب ابن زيدون بصوت الجارية المغنية، وبحسن أدائها، فطلب منها الإعادة من غير استئذان ولادة، فدبّت الغيرة في قلبها، وظهر أثر ذلك على وجهها، فانقلب الضياء ظلاما، والنهار ليلا، والابتسام تجهُّما. فاتجهت الأميرة الحبيبة إلى جاريتها

38 ـ ديوان ابن زيدزن ورسائله : 777 ـ 779. شرح وتحقيق : علي عبد العظيم، مكتبة نهضة مصر بالفجالة القاهرة 1957.

39 ـ ديوان ابن زيدون ورسائله : 120.

تضربها، وتعنّقها، فأعرضت عن الحبيب، ونترك ابن زيدون يصف ذلك بقلمه السيال، فهو الذي عاش واكتوى، وشاهد المنظر والمحتوى.

قال ابن زيدون : فسألتها الإعادة بغير أمر ولادة، فخبا منها برقُ التبسم، وبدا عارض التجهُّم، وعاتبت «عتَبة» بل ضربتها، فقلت :

وما ضربت عتُبي لذنب أتتْ به ولكنّما ولاَّدَةٌ تشتهي ضربي

فقامت تجر الذيل عاثرة به وتمسح طل الدمع بالعنم الرطب [40]

فبتنا على العتاب، في غير اصطحاب، ودم المدام مسفوك، ومأخذ اللهو متروك، فلما قامت خطباء الأطيار، على منابر الأشجار، وأنفت من الاعتراف، وباكرت إلى الانصراف، وشّتْ بمسك الأنفاس، على كافور الأطراس.

40 ـ ديوان ابن زيدون : 175.